مدينة عنابة في النصف الأول من القرن الثامن عشر من خلال رحلتي "بايصونال" و"هابنسترايت".

Annaba city in the first half of 18th century through Peyssonnel and Hebenstreit's journey.

يعقوب خديجة*

جامعة باجي مختار. عنابة– الجزائر

Khedidja-yakoub@outlook.fr

تاريخ الاستلام: 2023/08/12 تاريخ القبول 2023/11/11 تاريخ النشر 2023/12/31

ملخص:

يهدف هذا المقال والذي هو تحت عنوان: مدينة عنابة في النصف الأول من القرن الثامن عشر من خلال رحلتي "بايصونال" و"هابنسترايت": إلى تسليط الضوء على مدينة عنابة اعتمادا على رحلة الطبيب والرحالة الفرنسي "جان أندري بايصونال" Jean André Peyssonnel سنة 1725م، ورحلة الطبيب وعالم النبات الألماني "جون. أرنست. هابنسترايت" J. E. Hebenstreit سنة 1732م.

تحدّثت هذه المصادر الأجنبية عن مدينة عنابة وجانب من تاريخها الاجتماعي والاقتصادي في النصف الأول من القرن الثامن عشر ميلادي، وتركت لنا معطيات هامّة تتعلّق بالموقع والمساحة، العمران وبعض التحصينات العسكرية، بالإضافة إلى الأوضاع الاجتماعية كالسكان والقبائل وموقفهم من بايات قسنطينة وممثليهم في عنابة.

الكلمات المفتاحية: عنابة؛ رحلة؛ بايصونال؛ هابنسترايت؛ المجتمع؛ الاقتصاد.

* المؤلف المراسل

Abstract:
This article entitled Annaba city in the first half of the 18th century through Jean André Peyssonnel and Hebenstreit's journey aims at shedding the light on Annaba city depending on the trip of the doctor and the French traveler Jean André Peyssonnel in 1725, and the German doctor and botanist J. E. Hebenstreit in 1732.
These foreign sources talked about the city of Annaba and an aspect of its social and economic history in the first half of the eighteenth century, and left us important data related to the location and the area, the urbanization and some military fortifications, in addition to the social conditions such as the population, and the tribes besides their position in the beys of Constantine and their representatives in Annaba, besides that it showed the important role played by the city's ports by exporting goods and product to European countries.
key words: Annaba; journey; Peyssonnel; Hebensteit; Society; Economy

مقدّمة:

تشتمل الكتابات الأوربية عن مدن المغرب العربي مذكرات الرحالة وتقارير القناصل، وما شاهده البحارة وإفادات الجواسيس وتقاييد رجال الدين، وهي مع اختلاف اتجاهاتها وتضارب في المعلومات التي أمدّونا بها في بعض الأحيان، تعتبر مصدرا تاريخيا هامّا من الدرجة الأولى.

ويرجع هذا لأهمية المعومات التي تمدّنا بها هذه المصادر، وهي لا تقلّ أهمّية عمّا جاء في الكتابات المحلية، وتصبح في غياب الوثائق الأرشيفية وقلّة المصادر المحلية، مصدرا أساسيا لمعرفة الأوضاع الاجتماعية والثقافية والنشاط الاقتصادي، والوضع السياسي لتلك المدن الجزائرية خلال العهد العثماني.

وقد حظيت مدينة عنابة الواقعة شرق الإيالة الجزائرية باهتمام الأوربيين خلال القرن الثامن عشر ميلادي، فقد زاروا هذه المدينة وإقاموا بها لعدّة أيّام، ومن بينهم الطبيب والرحالة الفرنسي "جان أندري بايصونال" "Jean André Peyssonnel" الذي وجّه عدّة رسائل إلى مستشار الدولة الأب "بينون" "l'abbè Bignon"، وتحدث

عن عنابة في رسالته الحادية عشر المؤرخة في 15 فيفري 1725م، والرسالة الثانية عشر المؤرخة في 10 أوت 1725م.

وبالنسبة للطبيب وعالم النبات الألماني ج. أو. هابنسترايت " J. E. Hebenstreit"، فتحدّث عن عنابة أيضا في رسالته الرابعة إلى ملكه بتاريخ 5 أكتوبر 1732م. وبالتالي جاءت رحلتي "بايصونال" و"هابنسترايت" على شكل رسائل وجّهت إلى ملوكهم ومسؤوليهم، الذين تكفّلوا بإرسالهم إلى بلدان المغرب العربي في مهمات علمية، بغرض التعرف على طبيعة البلاد وسكانها، والبحث عن الحيوانات والنباتات الموجودة فيها، والوقوف على معالم الحضارة الرومانية.

فمن يكون هؤلاء الرحالة؟ وما هي أهّم المميزات العمرانية التي كانت لمدينة عنابة؟ وما هي علاقة المجتمع بممثلي بايات قسنطينة؟ وما هو الدور التجاري لموانئ المدينة؟ وإلى أي مدى تعرّفنا كتب الأجانب عن الحياة اليومية لسكان مدينة عنابة؟

تمّ الاعتماد على المنهج التاريخي والذي يندرج تحته عدّة مناهج فرعية، مثل المنهج التحليلي والمنهج الوصفي والمقارن، فالمنهج التحليلي فرضته طبيعة الدراسة التي تعتمد على تحليل ما جاء في المصادر التاريخية من معلومات، كما استعنت بالمنهج الوصفي أثناء تتبعي لعلاقة بين المجتمع وممثلي البايلك في مدينة عنابة بهدف الوصول إلى نتائج موضوعية، والمقارنة بين ما جاء في هذه المصادر.

نهدف من هذا البحث إلى سدّ الفراغ حول مدينة عنابة من حيث طبيعة الإدارة الحاكمة في المدينة، وعلاقاتها مع حكام قسنطينة، وأهم المنشآت المعمارية، والنشاط الاقتصادي للمدينة خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر ميلادي.

المبحث الأول: التعريف بـ" جان أندريه بايصونال" و"هابنسترايت".

زار مدينة عنابة خلال العهد العثماني العديد من الرحالة الأجانب، وسنعرف في هذا المبحث بالرحالتين اللذان اعتمدنا عليهما في هذا المقال.

المطلب الأول: التعريف بـ" جان أندريه بايصونال" ورحلته إلى الجزائر سنة 1725م.

هو (جان أندريه بايصونال/ Jean André Peyssonnel)، طبيب وعالم طبيعيات وُلد في مارسيليا بفرنسا سنة 1694، في جزيرة "قوادالوب" Guadeloupe وهي إحدى جزر الكراييب، وينحدر من أسرة ذات علم، حيث كان والده من مشاهير الأطباء في فرنسا، وشقيقه محاميا في آكس أون بروفانس Aix-en-Provence الواقعة جنوب فرنسا، والذي عين فيما بعد قنصلا في مدينة إزمير إلى غاية وفاته سنة 1759م[1].

بدأ حياته الدراسية في (كولاج ديسبرس/ College Disperse) بمرسيليا، ثم أكمل باقي المراحل الدراسية النهائية في باريس. تلقّى تعليمه على يد العالم ومؤسس معهد بولونيا (لويجي فيردناندو مارسيغلي/ Luigi Ferdinando Marsigli)، أين ظهر شغفه وحبّه للتّعمق ودراسة التّاريخ الطّبيعي. وقد مارس في بداية حياته مهنة الطب بمدينة مرسيليا، قبل أن يتم إرساله في بعثة علمية استكشافية إلى شمال أفريقيا.[2]

عيّنت أكاديمية العلوم الفرنسية "بايصونال" سنة 1723م كمراسل للطّبيب والكيميائي (إيتيان فرانسوا جوفروا/ Etienne- François Geoffroy). وفي السنة الموالية تمّ إرساله إلى شمال إفريقيا، وتحديدا إلى الجزائر وتونس بطلب من الملك الفرنسي (لويس الخامس عشر/ Louis XIV)، وذلك من أجل دارسة التّاريخ الطّبيعي للإيالتين (الجزائر وتونس) باعتباره متخصصا في هذا المجال.

ومن أشهر كتابات "بايصونال" كتاب: "رحلة على السّواحل البربرية" Relation d'un Voyage sur les Côtes du Barbarie (1724-1725)، كما عيّن بايصونال عند عودته لفرنسا كطبيب ملكي في (الغوادالوب/ Guadeloupe)، وهناك تفرّغ للقيام بأبحاثه، أشهرها تلك الّتي كانت متعلّقة بدراسته للمرجان الّذي وجد

منه الكثير خاصّة في المناطق السّاحلية الشّرقية الجزائرية. لكنّه اصطدم خلال بحثه أنّ العلماء الفرنسيين حينها لم يعترفوا باستنتاجاته حول الموضوع، ما دفعه فيما بعد للتّواصل مع الجمعية الملكية في لندن سنة 1752م من أجل تبنّي أبحاثه وتمويلها[3].

وقد كانت الفترة الزمنية لرحلة "بايصونال" إلى تونس والجزائر ما بين سنتي 1724 و1725م، ونشرها الباحث (أدولف ديرو دولامال/ Adohphe Dureau de lamalle) سنة 1838م، وهو عضو في المؤسسة العلمية (أكاديمية النّقوش والآداب الجميلة/ L'Académie des Inscriptions et des Belles-Lettres)، عن دار نشر فرنسية هي Librairie de Gide، ونشرت في كتاب واحد مع رحلة أخرى للرحّالة الفرنسي الآخر (ديفونتان/ René Louiche Desfontaines) والذي زار الجزائر أيضا في نفس القرن وتحديدا بين سنتي 1783- 1786م، وحمل كتابه عنوان: Voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger[4].

كانت أهداف البعثة الاستكشافية الّتي قادها "بايصونال" واضحة العالم، حيث كان يهدف لنقل وتصوير واقع سواحل شمال إفريقيا كما هي دون تحليل أو تفسير، ودوّن في بحثه هذا كلّ ملاحظاته ودراسته حول الشرق الجزائري خاصة من قسنطينة إلى عنابة والقالة، كما أولى اهتماما كبيرا بالحديث عن المرجان[5].

المطلب الثاني: التعريف "بهابنسترايت" ورحلته إلى الجزائر سنة 1732م.

حسب المؤرخ الجزائري "ناصر الدين سعيدوني"، فإنّ رحلة الطبيب وعالم النبات الألماني "ج. أو. هابنسترايت" تحتل مكانة خاصّة، فهي تقدم صورة لأقطار المغرب العربي (الجزائر، تونس، طرابلس) في النصف الأول من القرن الثامن عشر ميلادي، وتميّزت بالاعتدال والموضوعية والنظرة المتّزنة، بالمقارنة مع باقي الكتابات المعاصرة لها في تلك الفترة[6].

درس "هابنسترايت" الطب في مرحلة شبابه بجامعة ييبنا "Iena" واستقر بـ "لايبزيغ" Leipzig، واشتغل عند أحد التجّار الأغنياء، فأوكلت له مهمة العناية بالنباتات النادرة، كما واصل دراسته، وحصل على مؤهل سمح له بمزاولة مهنة الطب[7].

كلّفه ملك بولونيا أغسطس الثاني (1670- 1733م) برئاسة بعثة علمية إلى شمال إفريقيا، للتعرف على نباتات وحيوانات تلك المنطقة، وجمع عينات منها لفائدة القصر الملكي، وقد نجح في مهمته ونال ثقة حكام الجزائر وتونس وطرابلس وأقام علاقات ودّية معهم، وساعدته في مهمته معارفه الطبيعية وملاحظاته الدقيقة بصحبة الأفراد المرافقين له، عاد إلى بلاده بألمانيا بعد وفاة الملك الذي قام بإرساله، كما عيّنه الملك الجديد كأستاذ للطب في "لايبزيغ" الألمانية[8].

المبحث الثاني: أصل التسمية ووصف المدينة.

كانت مدينة عنابة تسمى بـ "بونة"، وتبعد عن مدينة القالة بـ 13 أو 14 فرسخا، سمّاها السكان "بلد العناب" نسبة لشجر العناب[9]، وقد تميّزت المنطقة المحيطة ببونة والممتدة عبر السهل بخصوبة تربتها، حيث لاحظ "بايصونال" عددا كبيرا من أشجار العناب الطويلة والجميلة، إضافة إلى وجود العديد من الحدائق وأشجار التين، ولا يوجد مكان تكثر به أشجار العناب في شمال إفريقيا مثل مدينة عنابة، ومنها جاءت تسمية المدينة باسم "بلد العناب"[10].

وهي نفس الملاحظات التي تركها لنا الألماني "هابنسترايت"، إذ يقول أنّ شجر العناب هو الذي أخذت منه المدينة اسمها، فمدينة "بونة" أو "هيبون القديمة" تعرف باللغة الموريسكية بعنابة نسبة إلى غابة "العناب"[11].

وقد اكتسبت عنابة أو "بونة" شهرتها لكونها مركز أسقفية القديس أوغسطين، أحد آباء الكنيسة الرومانية، حيث كان يحظى باحترام السكان الذين يعتبرونه وليّا صالحا،

وحسب "هابنسترايت" فإنّ هذا الأب الذي يوجد قبره هناك، هو من دعا إلى التوقف عن ممارسة القرصنة في البحر واعتبره سلوكا مشينا[12].

غير أنّ بعض الرحالة الألمان الذين زاروا عنابة في القرن التاسع عشر، يرون أنّ الفينيقيين هم من أطلقوا على عنابة اسم "أوبو" Ubusubo، فأنشأ أبناء قبيلتهم من القرطاجيين مستعمرة فيها، ويشتق "غيسينيوس" اسمها من كلمة "أيبو" Ipu التي تعني الجمال والفخامة، فمعنى "هيبو" هو "المدينة الفاخرة"[13].

ويرى أحد المؤرخين الجزائريين أنّ اسم "بونة الحديثة" أصبح غريبا عن عامّة الناس بعد أن صارت المدينة تعرف ببلد العناب، ولم ينته القرن الخامس عشر ميلادي حتى اكتسبت المدينة تسميتها الحالية وهي "عنابة" عند العام والخاص، ولم يعد يرد لفظ "بونة" إلّا في المصنفات التاريخية والتقاويم الجغرافية، رغم تشبث الفرنسيين أثناء الاحتلال بالتسمية اللاتينية وهي Bône[14].

زار الرحالة "بايصونال" مدينة عنابة بعد إقامته في مدينة القالة لعدّة أيام، ومغادرته لها يوم 21 جانفي 1725م، رفقة السيد دوبارن Daubergne مترجم الشركة الإفريقية متجهين إلى بونة، ومن ثمّة إلى قسنطينة، تحت حراسة بعض الدوابر أو جنود القايد[15]، ومن المرجح أن يكونوا جنود قايد عنابة، فقد ذكر في موضع آخر أنّ قايد بونة قد خرج مع الرحالة من مدينة قسنطينة يوم 6 فيفري 1725م[16].

في حين وصل الألماني "هابنسرايت" إلى مدينة عنابة يوم 6 جوان 1732م وقام بها لعدّة أيام، واعتبر الطريق المؤدي من عنابة إلى قسنطينة غير آمن، كما عاد إليها مرة أخرى بعد شهرين وتحديدا في 14 جويلية، وغادرها في اليوم الموالي متوجها إلى القالة[17]، كما بيّن أنّ إقامته فيها جعلته يأمل في معاينة عملية صيد المرجان بالقالة وطبرقة[18].

تبعد مدينة عنابة عن مدينة قسنطينة حوالي 36 فرسخا[19]، وهي مدينة صغيرة تقع عند منحدر جبل ذو ارتفاع حاد من جهة البحر[20]، حيث توجد بقايا مدينة هيبون Hippone القديمة أو هيبوريجيوس Hipporegius التي كان القديس "أوغستين" أسقفا لها سنة 430م، حيث شيّد بنايات دينية وفيها توفي، كما كانت هذه المدينة من الأماكن المحصّنة في شمال إفريقيا، حيث لجأ إليها الكونت بونيفاس Boniface بعد هزيمته على يد الوندال[21]، في سنة 429م.

ثم قام الملك الوندالي "جنزيريك" Genséric بحصارها لمدة 8 أشهر توفي خلالها القديس أوغستين، ولما استولى عليها الوندال قاموا بتخريبها عن آخرها ولم يبق من البنايات سوى كنيسة القديس "أوغستين" ومكتبته فقط[22].

وبالنسبة لموقع "هيبون" القديمة، فتقع على بعد طلقة بندقية من البحر، بين نهرين أحدهما يجري جهة الشرق والآخر جهة الغرب، وتتربع على جبلين صغيرين، وهي لا تزال قائمة[23]، وبالتالي فبايصونال يعيد تاريخ المدينة إلى العصر الروماني، وأكدّ أنّ معالم مدينة عنابة القديمة مازالت قائمة خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر ميلادي، وهي واحدة من المهام التي جاء من أجلها، وإظهار آثار الحضارة الرومانية.

ومن ناحية الشكل العمراني والمعماري للمدينة، فيكاد يكون شكلها دائري، ويبلغ طول محيطها حوالي ¼ فرسخ، مشيدة على الطريقة الموريسكية، ومبنية كلها تقريبا بواسطة الآجر، غير أنّ لشوارع المدينة عدّة عيوب حسب "بايصونال"، ومن بينها أنّها سيئة وشديدة الضيق، وتمتلئ بالطين الذي يصل سمكه إلى قدم في فصل الشتاء والصيف، بسبب روث الأبقار والثيران التي يقوم السكان بتربيتها في المدينة، كما أنّ المدينة لا تحتوي على ساحات ولا بنايات تجلب النظر[24].

كما نفى بايصونال أن يكون هناك بنايات أخرى في عنابة ما عدا المسجد الكبير المسمى أبو مروان وبعض الأعمدة، وبناية المسجد المحاذية للبحر تبدو جيّدة وهي أقدم من بقية التحصينات[25].

غير أنّ الرحالة الفرنسي "لويش رين ديفونتان" الذي زار عنابة سنة 1785م، قد أعجب بالمدينة، حيث قال أنّ لعنابة منظر خاص اكتسبته من منازلها الصغيرة الناصعة البياض، حتى أنّها كانت تتعب العين بسبب نصاعة بياضها، مع أنّ نصف المنازل كان مغطى بالقرميد، أمّا النصف الآخر فكانت تعلوه أسطح وشرفات ذات أشكال مختلفة[26].

وبالنسبة للقبور التي تنسب إلى رجال الكنيسة، منها قبر القديسة "مونيكا" أم "أغسطين"، فهي توجد في أديرة إغريقية تعرف هناك بحدائق أوغسطين، وهي ذات ممرات منتظمة تحيط بها أشجار العناب والتوت وغيرها من أشجار الفاكهة، وعلى بعد ميل واحد منها يوجد مكان مدينة "هيبون القديمة" القريب من "رأس ماترا" Matra عند مدخل الخليج، ومكانها الآن عبارة عن آثار آيلة للزوال باستثناء الحصن الذي ظل في حالة جيدة[27].

أمّا الشواطئ التي تقع غرب عنابة، فهي تحتوي على أرصفة مرجانية غنيّة، شأنها شأن كل شرق الجزائر وشمال تونس، وهو ما أعطى هذا الساحل تسمية "ساحل المرجان"، وكانت سببا في طمع الأوربيين لهذه السواحل، وقد لعب المرجان دورا هاما في علاقات دول البحر المتوسط الأوربية بعنابة وبالجزائر ككل[28].

في حين يبلغ طول سهل عنابة حوالي ثمانية (8) فراسخ[29]، كما أعطى هابنسرايت نفس الوصف لهذا السهل، إذ أعجب به واعتبر أن هذا المنظر لا يوجد مثله في موريطانيا الخصبة، وهو مغطى بأشجار البرتقال والعناب، وهو الشجر الذي أخذت منه المدينة اسمها[30]، وبالنسبة للأودية فيوجد نهرين هما:

1- سيبوس: ينحدر من جبال ناحية قسنطينة وينبع من عين سقان[31]، وفوقه قنطرة قديمة[32].

2- نهر بيجيما "Bégéma" ويتميز بصغره، وبين هذه الأودية تقع مدينة "هيبون" Hippone أو هيبورجيوس Hipporegius، وهذه الأودية عميقة عند المصب، وتلتقي قبل وصولها إلى البحر، حيث يكون التقائهم على مسافة غير بعيدة من مدينة بونة[33].

غير أنّ "الحسن الوزّان" قد أخبرنا مطلع القرن السادس عشر ميلادي، عن افتقار المدينة للماء، إذ يقول في هذا الشأن: "ليس في مدينة عنابة عيون، وإنّما فيها صهاريج (نطافي) لخزن ماء المطر"[34]، وهو ما يرجح غياب ينابيع مائية طبيعية، وتوجه السكان للاعتماد على مياه الأمطار.

ويمكن القول أنّ مدينة عنابة احتلت موقعا استراتيجيا هاما، جعلها بمنأى ومأمن عن غارات الأساطيل الأوربية، كما سمح لها هذا الموقع بالتحصن البرّي والبحري وممارسة التجارة الداخلية والخارجية.

المبحث الثالث: عنابة بين سلطة الحفصيين، الإسبان والعثمانيين.

في مطلع القرن السادس عشر ميلادي احتل الإسبان مدينة عنابة وتحديدا سنة 1510م، وقد تصدى السكان لهذا الغزو، وخاضوا عدة معارك ضد المحتل، إلى أن تمّ تحريرها من طرف "خير الدين بربروس" سنة 1535م حيث ضمَها للحكم العثماني[35]، غير أن المؤرخ "سعيدوني" يقول أنّ عنابة قد تمّ تحريرها من الاسبان سنة 1540م في عهد "حسن آغا" (1534- 1544م) [36]، وليس سنة 1535م كما ذكر "بايصونال".

وفي عنابة أكمل "خير الدين" استعداداته لحملته ضدّ الاسبان المسيطرين على تونس، وتمكّن من تحريرها سنة 942هـ/ 1535م، وعندما استعادها "شارلكان" ملك إسبانيا

من "خير الدين"، فان سكان عنابة ثاروا على "الحسن الحفصي" المنحاز للاسبان، وكانت عنابة أيضا كسند ومركز هام لـ "علج علي" باشا الجزائر أثناء هجومه البرّي على تونس سنة 978هـ/ 1570م[37].

إذن فقد شكّلت هذه المدينة كقاعدة عسكرية ملائمة، انطلق منها حكام الجزائر خلال القرن السادس عشر ميلادي لبسط نفوذهم في عرض البحر المتوسط، وإلحاق بعض البلدان بالحكم العثماني.

المطلب الأول: الحامية والأبراج.

عندما احتل الجنويون مدينة عنابة لفترة من الزمن، شيّدوا بها الحصون من أجل ضمان الحماية لصيّادي المرجان، حسب ما أفاد به "بايصونال" وما شاهده من آثار بقيت قائمة في تلك الفترة، وبعد أن طردهم الأتراك، أقاموا بناية كبيرة من الجدران تشبه القلعة فوق قمة جبل صغير، وهذه القلعة ذات شكل قوس من جهة البر، ودائرية الشكل من جهة البحر في موقع جد ممتاز[38]، وهي المعروفة بالقصبة.

وقد كانت تحيط بالمدينة في ذلك الوقت أسوار تحتوي على عدّة أبراج، ودفاعاتها ضعيفة، وأخبرنا "بايصونال" بأنّها خربت، وأنّها لم تحتل أي مكانة كبيرة في الماضي، وقد تساءل عمّا إذا كانت المدينة الجديدة قد بدأ السلاطين الحفصيين بتونس في بناها حوالي سنة 1500م[39].

غير أنّ المؤرخ "سعيدوني" يرى أنّ تجديد هذه التحصينات كان سنة 1535م على يد القائد الإسباني "أندري دوريا"، حيث أسكن بها الجنويين، وبعد تحرير عنابة من يد الاسبان سنة 1540م في عهد حسن آغا (1534- 1544م)، ضمّها إلى بايلك قسنطينة وأعاد بناء القصبة، فقويت الأماكن الجانبية ووسّعت ممرات الحراسة وغرف الحرس ومخازن المؤونة وخزانات المياه، وفتحت بجدار التحصين نوافذ تبعد الواحدة عن

الأخرى بين 15 و20 مترا، وبين هذه النوافذ نجد قاعات لحفظ الأسلحة، وتنقسم قصبة عنابة إلى:

1- قسم شرقي يضم المسجد وعمارة يسكنها ضباط الجيش.

2- قسم غربي ويمثل ثكنة للمشاة الإنكشارية.

3- قسم وسط وهو قلب القصبة، ويضم عدّة منشآت ومرافق عمومية وتتكون من طابقين[40].

لكن من مساوئ حصن القصبة حسب "بايصونال" أنّها كبيرة جدا، ولا توجد بها بناية عند المخرج ولا عند المدخل، وهي خالية من الأبراج والتحصينات الخارجية لحمايتها، ويمكن اعتبار دفاعاتها ضعيفة، وهذه القلعة مزودة ببطارية تضم بضعة مدافع وتحرسها حامية عسكرية تتألف من 80 جندي تركي تحت قيادة آغا، بالإضافة إلى قايد يحكم المدينة والمنطقة المحيطة بها[41].

حيث يرسل باشا الجزائر حامية إلى عنابة كل سنة، فقد خرجت سنة 1725م حامية تنقّلت بحرا بواسطة خمسة عمارات وسفينة كبيرة ذات أربعين مدفعا لاستبدال حاميات عنابة وقسنطينة وتبسة[42]، وبالتالي فحامية عنابة والمدن الساحلية الواقعة بباليك الشرق الجزائر تخرج عن طريق البحر وليس عن طريق البر.

في حين قدّر "سعيدوني" عدد أفراد الحامية أو "النوبة" مابين 50 و100 شخص حسب الظروف، وفي السنوات التي سبقت الاحتلال الفرنسي للجزائر كان هناك 100 تركي بالحصن تحت قيادة أحد الكراغلة من ذوي النفوذ والهيبة، وقد تناقص عددهم قبيل الاحتلال إلى 50 شخص فقط[43].

كما أشار "دفتر التشريفات" إلى أنّ عدد أفراد هذه الحامية سنة 1245هـ/ 1829م ب 71 رجلا موزعين على 5 صفرات[44]، وهو ما يؤكد على تناقص عدد الجنود الإنكشارية بعنابة أواخر العهد العثماني.

وتحتوي المدينة على برجين أحدهما يسمى "برج اللقلق"، وقد بناه الجنويون في حوالي سنة 1540م، وهو برج مثمّن الشكل ويحتوي على بضع المدافع، والبرج الثاني عبارة عن معقل شيّد في نفس الفترة التي شيّد فيها البرج الأول، وهذان البرجان يشرفان على البحر من جهة الشرق[45].

ورغم هذه التحصينات تعرّضت مدينة عنابة للهجومات الأوربية، منها احتلالها من طرف جيش توسكانة (وسط إيطاليا) سنة 1608م لعدّة أشهر، وقد استشهد "محمد بن فرحات" باي قسنطينة في الدفاع عنها[46].

وبفضل كل هذه المجهودات أصبحت عنابة من أهم موانئ بايلك الشرق، واتخذت كقاعدة بحرية كبيرة لأسطول البحرية الجزائرية الذي واجه غارات القراصنة الأوروبيين وأطماعهم وحملاتهم المتكررة إلى غاية سقوطها في يد الفرنسيين سنة 1832م[47]، وقد ذكر "خير الدين بربروس" في مذكراته أنّه اتّخذ مدينة عنابة كملجأ له عند عودته من تونس بعد أن احتلها الاسبان سنة 1535م، وكانت تنتظره حوالي 14 سفينة حربية من نوع "قادرغة" في مدينة عنابة[48].

ويلاحظ المؤرخ "سعيدوني" أنّ المدينة لم تشهد ازدهارا ملحوظا، بعد أن حطّمت تلك الأحداث والحروب المقومات الأساسية لاقتصادها، رغم المجهودات الصادقة للحكام العثمانيين لتحسين حال عنابة والنهوض بها خلال فترة حكمهم[49].

المطلب الثاني: تأسيس وجق عنابة

كانت الإمبراطورية العثمانية مقسمة إلى إيالات "ولايات"، وهذه الولايات مقسمة إلى أجزاء أصغر تسمى "سناجق"، وهذا التنظيم كان بطبيعة الحال متغيرا حتى بعد وصول الإمبراطورية إلى أقصى توسع لها في نهاية القرن السادس عشر ميلادي[50].

فالسنجق هو نظام إداري اعتمده الحكام العثمانيون، والسناجق وحدودها ومشتملاتها كانت تتغير مع الزمن، وحسب الأوضاع الراهنة، وقد تقدّم كل من باشاوات

الجزائر: جعفر باشا ورمضان باشا وقضاة تونس وبلاد الساحل والقيروان برسائل للباب العالي أشاروا فيها وأشادوا بتأسيس وجق يضمّ كلا من بلد العناب، وحصن الباستيون بالقالة وطبرقة وقلعة باجة، وبموجب قرار سلطاني أو "خط همايوني" من السلطان العثماني سليمان القانوني (1520- 1566م) تمّ تأسيس هذا الوجق بموجب قرار صادر في 18 شوال سنة 988هـ/ 1580م، وتمّ تنصيب القائد محمد على ذلك السنجق مقابل 10 آلاف دينار سنويا[51].

المطلب الثالث: إدارة المدينة

وصف الرحالتين نوعية العلاقة بين الحكام المحليّين وشيوخ قبائل المنطقة، والصراع المرير بين قايد عنابة وغدره بشيوخ المنطقة من أجل المال، وكانت رواية "بايصونال" أكثر دقّة وأمتع تفصيلا وأدق لهجة، كما يظهر أنّ أجزاء كبيرة خارج مدينة عنابة كانت مستقلة لا تخضع للوجود العثماني، وهي تحت تصرف الأمراء المحليين خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر ميلادي.

وقد كان القيّاد يعملون تحت سلطة البايات، وهم الذين يحكمون الأقاليم ويسهرون على جباية الضرائب للبايلك، وكانوا يعيّنون على كل مدينة وقبيلة، وقد أمدّنا "بايصونال" بصفاتهم ومعاملتهم اتجاه الرعية، إذ يقول في هذا الشأن: "هم طغاة يقومون بالسلب والنهب وقتل العرب، لإشباع رغباتهم وفرض سلطتهم"[52].

إنّ كلّ هذه المعلومات التي أمدّنا بها "بايصونال" حول قايد عنابة كانت بعد مرافقته أثناء تجوله في بايلك قسنطينة، كما ذكر في بعض الأحيان وجود آغا الصبايحية برفقتهم، ويخرج القايد كل سنة إلى المعسكر من أجل استقبال الفرق العسكرية التي كانت تأتي من مدينة الجزائر، من أجل تأكيد القيام بواجباته ومن أجل تسليم الضرائب، أو كما تسمى "بالغرامة" أو "الحقوق" التي كان عليه استلامها أو دفعها[53]، وقد ساق القايد 2000

عجل، و100 حصان عربي[54]، وهي قيمة الضرائب التي يسلمها القايد كضرائب عينية يقدّمها للبايلك.

وبالنسبة لعلاقة قبائل المحيطة بعنابة، فيخبرنا "هابنسترايت" أنّ بعض المناطق الجبلية البعيدة نوعا ما عن المدينة كانت تعيش في استقلالية عن السلطة، وهي في حرب دائمة مع رجال البايليك، وقد سلم قايد عنابة أمرا لأحد شيوخ دواوير هذه المنطقة باحترام واستقبال بعثة "هابنسرايت" ومرافقيه، وهو ما قام به شيخ المنطقة[55].

وقد كان منصب "قايد عنابة" منصب هام وحسّاس جدا، ويعتبر مصدر للثروة والجاه والنفوذ، فقد عرض مثلا الشيخ بلعباس شيخ منطقة المعزول، الذي كان يسرق وينهب دواوير سهل عنابة[56]، لهذا القايد مبلغ 1000 قرش مقابل أن يقوم القايد بقتل ثلاثة من أبناء إخوة الشيخ[57].

غير أن طمع القايد قد أدى إلى القبض على ابن شيخ القبيلة، رغبة في الاستيلاء على أموال أبيه المتوفى والذي بقي على رأس المشيخة لمدّة 30 سنة، واتهمه بمحاولة الفرار وعاقبه بالجلد، وقد دفع هذا الابن 1000 بسيطة أخرى للقايد، مما زاد من أطماع هذا الأخير الذي قام بتسليم هذا الابن رفقة والدته إلى باي قسنطينة من أجل قتلهما، غير أن الباي قد أعادهم للقايد مرّة أخرى من أجل تعذيبهم والاستيلاء على أموال أبيه المتوفى[58].

لقد كانت المناصب تعود على صاحبها بالمال والهدايا، فهذه الأمثلة تدل على أنّ المناصب ذات مصدر دخل مادي للقايد، وهناك مصادر مالية أخرى لهذا الموظف المخزني، فقد كانت مثلا المؤسسة التجارية الفرنسية "باري" maison de Paret بعد تنصيبها لوكيل تجاري لها بعنابة سنة 1822م، ونيلها لحق تصدير بعض المنتوجات، كانت تدفع مقابل ذلك مبلغ مالي قدره 30 ألف قطعة ذهبية من الدولار الاسباني أو الريال الفرنسي، يأخذ منه قايد عنابة وشيوخ القبائل المجاورة نصيبا من المال[59].

وكان الحكام على مختلف درجاتهم، يجدون في الهيآت التجارية مصدر ثروة يستعملونه في استتباب الأمن وشراء المناصب[60]، كما تبيّن أحد مصادر القرن السادس عشر ميلادي أنّ خراج مدينة عنابة تمتد على مساحة 40 ميلا طولا و25 ميلا عرضا، وكلها صالحة للقمح، وتسكنها قبيلة مرداس، تزرع الأرض وتملك عددا من الأبقار والمواشي، التي تعطي الكثير من مادة الزبدة والقمح[61]، وهي معلومات هامّة تفيد أهمية منصب قايد عنابة والعوائد المالية المتأتية من تولي المنصب المخزني.

كما كان لقايد عنابة فرقة تحمل رايات وأعلام نصفها حمراء والنصف الآخر أصفر، وترمز للتميز والقيادة، ويرافقهم 80 شخصا من الصبايحية والفرسان الأتراك، أو من الدوايرو والفرسان العرب[62].

غير أنّ "بايصونال" و"هابنسترايت" قد أهملا النفوذ الروحي لشيوخ الزوايا والمرابطين ورجال التصوف، الذين كانت لهم شهرة وكلمة مسموعة في مدينة عنابة وخارجها، مقارنة مع ما أورده "الحسن الوزان في القرن" مطلع السادس عشر ميلادي، الذي أخبرنا عن تعظيم سكان مدينة عنابة لبعض الأولياء الصالحين، وإحاطتهم بتعظيم واحترام[63].

أمّا كتاب "منشور الهداية" "لعبد الكريم الفكون" الحفيد، فقد أخبرنا قبل قرن من مجيئ "بايصونال" و"هابنسترايت"، أنّ الشيخ "طراد" الذي الذي اتبع طريقته الدينية كل من أهل عنابة وسكان القرى والبوادي المحيطة بها، بالإضافة إلى أشخاص آخرين ذوو نفوذ روحي وديني منهم "محمد ساسي البوني" و"علي خنجل" القادم من نواحي فاس أو مراكش بالمغرب الأقصى[64].

كما لم يتحدث الرحالتين عن بعض الجاليات التي كانت متواجدة بمدينة عنابة، ومنها العنصر الأندلسي الذي كان متواجدا بكثرة[65]، فقد جاؤوا بعد انتصاب الأتراك العثمانيين في عنابة خلال القرن السادس عشر ميلادي واستقروا بأحيائها، ومارسوا مختلف الصنائع والمهن اليدوية واحتكروا الأعمال التجارية[66].

ومن أشهر الأندلسيين الذين هاجروا إلى الإيالات المغاربية "مصطفى قردناش"، الذي تولى منصب شيخ الأندلسيين بتونس وطرابلس لمدة ما يقرب من نصف قرن، وبعد طرده من تونس، التجأ إلى عنابة وعمل فيها على النهوض بزراعة الزيتون الكثيفة[67].

إذن فالرحالتين لم يوليا اهتماما كبيرا بالجانب الإجتماعي، ولم يتعرضا لأهم الشرائح السكانية التي كانت مقيمة بعنابة، كما غاب ذكر أبرز النشاطات المهنية والصناعية التي تولتها مختلف هذه الفآت السكانية في أحياء المدينة.

المطلب الرابع: عدد السكان.

لم يمدّنا الرحالتين "بايصونال" و"هابنسترايت" بأي معلومات تعلق بعدد سكان عنابة في النصف الأول من القرن الثامن عشر ميلادي أو القرون التي سبقته، وقد كان عدد سكان المدينة مطلع القرن السادس عشر ميلادي ذات كثافة متوسطة، فقد أمدّنا "الحسن الوزّان" بمعلومات قدّرها ب 300 كانون أو موقد[68]، ويمكن تقديرها بحوالي 300 أسرة، غير أنّ الباحث "ناصر الدين سعيدوني" اعتبر أن 300 موقد يمكن أن تقدم لنا معلومات تتعلق بأكثر من 3000 نسمة في مدينة عنابة[69].

غير أنّ هذا العدد ارتفع أثناء القرن السابع عشر ميلادي، إذ ارتفع عدد سكانها إلى حوالي ثمانية آلاف نسمة، ثم بلغت أوج ازدهارها في أوائل القرن الثامن عشر ميلادي عندما أصبح عدد سكانها آنذاك يقدر ب 12 ألف نسمة[70]، في حين تذهب الباحثة التونسية "لوسات فلنزي" إلى القول أنّه لا توجد مدينة هامّة ذات كثافة سكانية كبيرة في الشرق الجزائري باستثناء مدينة قسنطينة التي يعيش فيها 25 ألف نسمة[71].

كان وصف "الحسن الوزّان" لسكان عنابة متناقضا نوعا ما، فتارة وصفهم بأنهم ظرفاء، وتارة وصفهم بأنهم متكبرون وشرسون، لدرجة قتل حكامهم، والتهديد بتسليم المدينة للمسيحيين، إذا لم يرسل لهم الحاكم الحفصي بتونس حاكما عادلا[72]، وهي

معلومات توحي كلها بشجاعة سكانها على المقاومة، والدفاع عن مصالحهم ضد الأجانب وضد الظلم الذي مارسه ممثلوا البلاط الحفصي اتجاه سكان عنابة.

كما لم يقدّم لنا "بايصونال" و"هابنسترايت" معلومات حول ما إن كان لسكان عنابة عادات وطقوس يمارسونها في حياتهم اليومية، وكل ما أخبرنا به "بايصونال" عن تعجّبه من بعض العادات أثناء مراسيم الزواج، حيث أنّ أهل البيت يقومون بإحضار أربعة من أصدقائهم لحضور العرس، والتأكد من عذرية العروس في الليلة الأولى من الزواج، وقد استقى الرحالة معلوماته من أناس موثوق فيهم، حيث أكّدوا له أنّ هذه العادة كانت تمارس فعلا[73]، غير أنّنا نعتقد أنّها حالة شاذّة وقليلة الوجود في مجتمع مدينة عنابة، طالما أنّ الشرع الإسلامي كان يبين شروط الزواج.

المبحث الرابع: الميناء

نالت مدينة عنابة خلال العهد العثماني أهمية كبيرة، بسبب مينائها البحري الذي يعتبر الشريان الرئيسي، الذي تمر منه كل المبادلات التجارية بين بايلك قسنطينة وباقي المدن الأوربية مثل ليفورن ومرسيليا وجنوة، ومما زاد في تدعيم مكانة ميناء عنابة كونه كان محميا من الرياح الغربية، وما يصاحبها من تيارات مائية بمرتفعات "إيدوغ" الممتدة من السهل في الجنوب، حتى رأس الحمراء في الشمال على مسافة 14 كلم، فضلا على أنّ الميناء في حدّ ذاته كان يستند إلى أسوار المدينة، وتنتصب بالقرب منه قطع المدفعية المقامة في الجهة الشرقية[74].

وقد كان في عنابة ثلاثة مراسي: رأس الحمام، الخروبة، حصن الجنويين وهو أهم مرسى، تمّ بناؤه في القرن الخامس عشر ميلادي عندما كانت التجارة مزدهرة بين عنابة وجنوة[75]، وقد تحدث "بايصونال" عن "ميناء الجنويين" بشيئ من التفصيل حيث اعتبره ميناء المدينة ويبعد عنها مسافة فرسخ واحد[76].

كما أعجب به فيقول عنه أنّه من بين أحسن الموانئ في شمال إفريقيا، ولا يخشى فيه سوى من الرياح الشرقية والشمالية الشرقية، وهو ذو عمق جيد ومن النادر أن تصاب فيه السفن بالعطب، وقد انطلق الرحّالة منه على متن إحدى السفن التي تعمل على نقل الخمر نحو القالة[77].

وترسو في هذا الميناء السفن التي تأتي لشحن البضائع من عنابة، وقد كانت السفن الصغيرة فقط هي التي يمكنها التقدم من الميناء[78]، ومن المرجّح أن تكون المعاملات الكبيرة والكثيرة مع تجّار جنوة هي التي أدت إلى إطلاق هذا الاسم على الميناء.

وبصفة عامّة حول الملاحة في عنابة، كانت حركة البحر غير منتظمة ومتقلبة، وكانت التيارات المائية تتقدم وتتراجع إلى الأمام والوراء، مما يسهّل على بعض السكان صيد الأسماك التي فاجأها التيار المتراجع إلى الوراء[79].

ولم تكن عملية التصدير في ميناء عنابة تتم خلال القرن الثامن عشر فقط، فقد بيّن "الحسن الوزّان" خلال القرن السادس عشر ميلادي أنّه في كل سنة تأتي سفن عديدة من تونس وجربة وجنوة، ومن مختلف الموانئ لشراء القمح والزبدة من عنابة، في حين يقام السوق كل يوم جمعة خارج المدينة قرب الأسوار ويستمر إلى المساء[80]، كما كان يوجد شاطئ غير بعيد عن عنابة يكثر فيه المرجان، وقد قام احد السلاطين الحفصيين بتأجيره للجنويين[81].

ومن الناحية العسكرية، فقد كان مرفأ عنابة منطلق آمن لرسو سفن غزاة البحر خاصة من عواصف الرياح، ومحطّة يلجؤون إليها لغزو شواطئ إيطاليا، وفي طريق انطلاقهم إلى اسبانيا، أو عند عودتهم إلى تونس والجزائر عن طريق سردينيا، إذ نادرا ما كانت المراكب تذهب مباشرة إلى الجزائر، وقد قدّم شارلكان إغراءات لخير الدين بربروس تتمثل في منحه مدينة عنابة لإقناعه بالانحياز إلى جانبه، والتخلي عن الدولة العثمانية، حيث وعده في

المفاوضات بأن تكون له بجاية وطرابلس وعنابة، كما مثّل مرفأ عنابة منطلق للجهاد البحري، فقد خرج منه سنة 1564م ستة عشر مركبا للغزو[82].

المبحث الخامس: النشاط الاقتصادي.

احتلت مدينة عنابة مكانة هامّة من حيث عملية الإنتاج والتصدير، وسنعالج في هذا المبحث مسألة الزراعة والتجارة وأهمّ المنتوجات الفلاحية والحيوانية التي كانت تنتجها عنابة وضواحيها.

المطلب الأول: الزراعة.

تعتبر الحبوب من أهم المحاصيل الزراعية في مدينة عنابة، بسبب الكميات الضخمة التي كانت تصدّر منها، وغالبا ما تتجاوز 40 حمولة أي ما يعادل 16 ألف قيسة من الحبوب، وقد تبلغ في السنوات الخصبة 100 ألف صاع، وأصبح ميناء عنابة يحتل المرتبة الأولى مع ميناء مدينة الجزائر في تصدير الحبوب من قمح وشعير، وكان يصدر من عنابة إلى مارسيليا ما بين 6 و8 آلاف قيسة من الحبوب، ومن مارسيليا توجّه إلى أسواق جنوب فرنسا[83].

وممّا ساهم في إنتاج هذه الكميات الكبيرة من الحبوب، هو سهل عنابة الغنّي بزراعة القمح، والذي تقطنه عدّة قبائل عربية، لكن البذور تكون فيه عرضة للغرق في موسم الشتاء، حيث تعاني من الجفاف في الصيف، وهو ما يجعل هناك تذبذب في منتوج المحاصيل الزراعية[84].

ونفس الرأي ذهب إليه "هابنسترايت" حيث اعتبر مدينة عنابة أجود منطقة في شمال إفريقيا، فقد رأى في موسم الحصاد أعداد لا تحصى من أكوام القمح في أريافها، كما أنّ خضرة الأشجار وتنوّعها تجعل المنظر ممتعا، وفي غاية الجمال مقارنة بالمناطق الأخرى[85].

وقد اعتاد سكان المنطقة المحيطة بعنابة على درس القمح في الحقول التي يزرع فيها، في حين تبدأ الأزهار في النقصان وفقدان جمالها بسبب حرارة الجو مع بداية فصل الصيف،

على عكس النباتات التي تتوفر على بذور كثيرة، وقد أخذ منها "هابنسترايت" من أجل إنشاء حديقة نباتات في ألمانيا[86].

كما أنّ سهل سيبوس يعتبر من أخصب السهول في الجزائر كلّها، فقد كان بايات قسنطينة يكسبون من محاصيله وحدها مبالغ ماليّة تكفي لتسديد الإتاوة السنوية التي يدفعها بايليك الشرق لباشا الجزائر[87].

المطلب الثاني: التجارة.

أقام الرحالة "بايصونال" في مدينة عنابة في منزل تابع للشركة الفرنسية التي كانت تقوم بتجارة الصوف والجلود والشموع[88]، في حين اعتبره "هابنسترايت" كمركز تجاري يهتمّ بتجارة القمح والشعير والخضر الجافة والجلود والعسل والشمع، وتعتبر هذه التجارة مربحة ومهمّة بالنسبة لمقاطعة البروفانس الفرنسية، حيث لا تكفي محاصيلها من الحبوب لسدّ حاجيات السكان[89].

وقد حققت الشركة الإفريقية التي يقع مركزها بمرسيليا أرباحا معتبرة بفضل هذه التجارة، وإن كلّفها هذا النشاط التجاري مبالغ كبيرة من المال، لتغطية نفقات مستخدميها والقائمين على أعمالها، ولتسديد أجور الأشخاص الذين يتولون نشاطها بالساحل الإفريقي[90].

وبالنسبة لأولى المواقع التجارية التي أنشأتها فرنسا في الشرق الجزائري، فقد تمكن "صانصون نابولون" من عقد معاهدة سلم وتجارة مع ديوان الجزائر بتاريخ 20 سبتمبر 1628م، سمحت للفرنسيين بالتمركز في حصن القالة أو كما يسمى بحصن فرنسا، كما أسّسوا الوكالة التجارية الفرنسية بعنابة مقابل رسوم سنوية يدفعونها لباشا الجزائر تقدر بـ 26 ألف دوبل، مع التعهد بدفع المصاريف الإضافية المتعلقة بصيانة ورعاية المركز وتبلغ 133,74 جنيه فرنسي، تتكفل عنابة بتسديد قسط منه يقدر بـ 13,300 جنيه[91].

ولم يذكر الرحالتين أي أسواق بمدينة عنابة، والظاهر أنّه كانت هناك عدة أسواق، زاد عددها مع مرور الوقت، فقد كان بداية الاحتلال الفرنسي لعنابة سنة 1832م عدّة أسواق منها خارج المدينة سوق الرحبة للحبوب، وسوق المواشي والأبقار، وفي داخل المدينة العديد من الأسواق منها سوق الحايك، الجزارين، النجارين، الفخارين، العطارين، الحدادين، الخرازين وغيرها[92].

وتذهب الباحثة السورية "ليلى الصبّاغ "إلى القول أنّه ليس هناك وثائق تدل على أنّ لتجّار مدينة عنابة علاقات تجارية سلمية في موانئ أوربا، أو لهم علاقات مع المشرق العربي، وتعتقد أن يكون لليهود المتواجدين في عنابة علاقات تجارية مع الأوربيين، على غرار باقي الدول الإسلامية التي وجدوا فيها[93].

كما لاحظ بعض الرحالة الألمان الذين زاروا عنابة خلال القرن التاسع عشر ميلادي، إلى أنّ التجارة في عنابة كانت مزدهرة منذ العهد الروماني، ويدل على ذلك العدد الضخم من اليهود الذين استقروا بها في العصور المسيحية الأولى[94].

وبالعودة إلى المعلومات التي أوردها "بايصونال" و"هابنسترايت"، فإنّهم لم يذكروا أيّة عائلة أجنبية مارست واحتكرت التجارة في مدينة عنابة، وهذا راجع لعدّة أسباب منها قصر مدّة إقامتهم بالمدينة.

في حين تشير الباحثة الجزائرية "يوسفي صرهودة" إلى قدوم عدّة عائلات أجنبية إلى عنابة، حيث مارست التجارة خلال القرن الثامن عشر ميلادي، ومن أشهرها عائلة يهودية قدمت سنة 1788م من ليفورنو وتسمى بعائلة "شيافينو" Shiaffin[95].

كما كان اليهود يستعملون عنابة وميناء سطورة، فيصدّرون إلى ليفورنة شحنات كبيرة من القمح الصلب لا يمكن حصرها لعدم وجود إحصائيات، وكذلك كميات من المرجان وريش النعام وبعض المنتوجات المحليّة الأخرى، وبالمقابل كانوا يستوردون منها بعض المصنوعات والخردوات والرخام، والقرنفل والتوابل[96].

وبصفة عامّة كان يهود الجزائر وبحكم مكانتهم لدى باشاوات الجزائر، فإنّهم كانوا يضغطون عليهم، لتقديم طلبات للسلطات الفرنسية من أجل منع الجزائريين من إنشاء محلات تجارية بفرنسا[97].

في حين ومن أجل تحديد العلاقة بين تجار مدينة عنابة مع التجار الفرنسيين، فقد كان وكيل الحرج بمدينة الجزائر يبعث برسائل يبين لهم كيفية التعامل معهم[98]، كما فنّدت "لوسات فلنزي " أن تكون منطقة شرق الجزائر تستورد أيّة منتجات من دول أوربا[99].

المطلب الثالث: أهم المنتوجات الفلاحية والحيوانية.

كانت عنابة مركزا هاما للتجارة في الشرق الجزائري، حيث وسّعت نشاطها وعملت على تصدير منتوجات شرق الايالة كثيران قالمة، وأصواف وخيول تبسة، والمنتوجات الحرفية من قسنطينة، ويستورد من ميناء ليفورنو نحو الإيالة الجزائرية عدّة مواد أهمّها السكر، القهوة، القرنفل والعطور[100].

وقد كانت مادّة القمح أهّم منتوج فلاحي يصدر من ميناء عنابة إلى فرنسا مطلع القرن الثامن عشر، فقد صدرت خلال الفترة الممتدة من 1719م إلى 1732م كمية تقدّر بـ 5960 حمولة[101].

ومن أهّم المواد الأخرى التي تصدر من عنابة إلى أوربا مادة المرجان، فقد قدّرت كمية استخراجه من سواحل عنابة إلى القالة سنويا ما بين 100 و 120 صندوق، أي ما يعادل 40 إلى 50 مركبا ترسل جميعها إلى مرسيليا، حيث كان الصندوق الواحد يزن ما بين 150 و 200 رطل[102].

وبفضل وجود كميات كبيرة من الصوف اشتهرت عنابة منذ مطلع القرن السادس عشر، بحياكة الملابس والأقمشة ونسج الأغطية، والبرانس والمعاطف والزرابي والبرادع[103]، ولعلّ هذه الأهمية التي اكتسبتها الصناعات النسيجية بعنابة خلال العهد العثماني، هي التي جعلت "الحسن الوزان" يخص النسّاجين بالذكر دون سائر الصناع الآخرين[104].

وكانت كمية الصوف المصدرة من ميناء عنابة سنويا وطيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر تتراوح مابين 10 آلاف و12 ألف قنطار، وقد بلغت في فترات الرخاء 16 ألف قنطار، وكان يباع القنطار الواحد منها من فئة 130 رطلا ب 16 قرشا، بالإضافة إلى تصدير 50 ألف قطعة من جلد البقر سنويا إلى أوربا[105]، وبالتالي يمكن القول أنّ مدينة عنابة كانت تساهم في إنتاج مختلف المنتوجات والثروة الحيوانية، وتصديرها لمختلف الدول وخاصة الأوربية.

كما كانت عنابة على اتصال وثيق بمالطة وماهون، حيث ترسل إليهما من حين لآخر شحنات من الحبوب والمواشي لسدّ حاجيات الأهالي ولتغذية الحاميات البريطانية[106].

خاتمة:

من أهم النتائج التي رصدناها وتوصلنا إليها من خلال دراستنا هاته:

– تشكل هذه الرحلات وبصفة خاصة رحلتي "بايصونال" و"هابنسترايت"، مصدر مهم لدراسة مدن إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، وما عرفته من أحداث أثّرت في العلاقات بين الأهالي والحكام، وما عرفته من تغييرات في الميادين الأخرى.

– كانت الرحلات الاستكشافية في الجزائر طوال العهد العثماني، وكانت لها دوافع علمية وأخرى تهدف إلى الجوسسة، خاصة وأن رحلة "بايصونال" و"هابنسرايت" جاءت بطلب من ملوك دولهم (الملك الفرنسي لويس الخامس عشر، وملك بولونيا أغسطس الثاني)، وقد تلقّت دعم وحماية من طرف عبدي باشا الجزائر (1724–1732م) وحسين بوكمية باي قسنطينة (1713–1736م).

– ساهم الرحالة الأجانب في إبراز واقع الجزائر والشرق الجزائري، وخاصة عنابة من حيث التعريف بمختلف الجوانب الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، كما عرّفتنا تلك الكتابات الأجنبية عن علاقة ممثلي البايلك بمدينة عنابة والمتمثل في القايد، وعلاقاته مع بايات

قسنطينة وشيوخ مقاطعته، ومعاملاته مع حصن الباستيون بالقالة، بالإضافة إلى مكانة الجيش الإنكشاري في مدينة عنابة والمتمثل في الحامية العسكرية، كما تعرّفنا على طبيعة السياسة الدفاعية لمدينة عنابة ضدّ الهجومات الأوربية، من خلال إنشاء تحصينات عسكرية للإنكشارية.

– اختلفت أهداف هذه الكتابات التاريخية حول مدن الايالة الجزائرية، فبعضهم كان له خلفية معادية للوجود العثماني في الجزائر، وكانت أهدافهم وطموحاتهم تهدف للسيطرة على البحر المتوسط واحتلال سواحل ومدن المغرب العربي، كما كانت تهدف من جهة أخرى إلى رصد الآثار الرومانية بمدينة عنابة أو "هيبون القديمة"، والوقوف عليها والتعرف على دلالاتها، ويعبّر ذلك عن توجه الأوروبيين لإحياء معالم الحضارة الرومانية في مدينة عنابة.

– عند المقارنة بين رحلتي "هابنسترايت" و"بايصونال"، فإن هذا الأخير مكث في الجزائر ثمانية أشهر ونصف، أما رحلة الألماني "هابنسترايت" في الجزائر فاستغرقت هي الأخرى ثمانية أشهر، لكنّها مختصرة نوعا ما مقارنة برحلة الفرنسي "بايصونال"، لكن رغم ذلك تبقى هذه المصادر ذات قيمة تاريخية، حيث عرّفت بالمدن الجزائرية وببعض عاداتها وتقاليد سكّانها خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، كما تعرّفنا عن السياسة الجبائية التي كان يقوم بها قايد عنابة مع أفراد الريف وسكان القبائل، والقائمة على الشدّة والعنف واستغلال المنصب من أجل مصادرة أموال السكان.

– لم تشر كتابات الرحالتين إلى نشاط المدينة في ميدان الجهاد أو القرصنة، أو إلى مختلف الفآت الاجتماعية الوافدة من خارج مدينة عنابة، والتي تكون قد مارست التجارة وأثّرت في معاملات تجّار عنابة مع دول أوربا، غير أنّه يجب التأكيد على أنّ عنابة قد حظيت باهتمام بايات وباشاوات الجزائر، باعتبارها نقطة تصدير ومن أهم المناطق المنتجة للمواد الاستهلاكية في الشرق الجزائري.

– هذا ما كتبه أوروبيان في النصف الأول من القرن الثامن عشر ميلادي، ونأمل أن تكون هناك مصادر جديدة تقدم لنا معلومات أخرى عن الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بمدينة عنابة خلال القرن الثامن عشر بصفة خاصة، والعهد العثماني بصفة عامة.

– إنّ ما خصّصه الأجانب للكتابة عن تاريخ مدينة عنابة جدير أن يجمع ويدرس ويحلل ويقارن بما جاء في رحلات العرب والمؤرخين والرحّالة المحليين، من أجل الإحاطة بتاريخ المدينة بغرض أن يكون هناك فهم لتطور المدينة في كافّة المجالات.

---

[1] جان أندري بايصونال: رحلة إلى إيالة الجزائر، ترجمة وتعليق لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم، الجزائر،2022م، ص7.

[2] عزالدين بومزو: *الضّباط الفرنسيون الإداريون في إقليم الشرق الجزائري ارنست مرسييه نموذجا*، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، تخصص تاريخ وحضارات البحر الأبيض المتوسط، جامعة منتوري قسنطينة،2007، ص4.

[3] حسان كشرود: "*بايلك الشرق" دراسة طبيعية وزراعية من خلال الرحالتين بايسونال وديفونتان والدكتور توماس شو*"، مجلة قضايا تاريخية، الجزائر، العدد: 06، 2017، ص45-65.

[4] *المرجع نفسه*: ص51.

[5] *المرجع نفسه*: ص50.

[6] ج. أو. هابنسترايت: رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ/ 1732م)، ترجمة وتقديم وتعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2007م، ص13.

[7] المصدر نفسه: ص 14.

[8] المصدر نفسه: ص14.

[9] جان أندري بايصونال: مصدر سابق، ص22.

[10] المصدر نفسه: ص 25.

[11] هابنسرايت: مصدر سابق، ص81.

[12] المصدر نفسه: ص94.

[13] هاينريش فون مالتسان: ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، ط1، ج2، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008م، ص243.

[14] ناصر الدين سعيدوني: الحياة الاقتصادية بعنابة أثناء العهد العثماني، مجلّة الأصالة، الجزائر، العدد 34- 35، 1976م، ص87.

[15] جان أندري بايصونال: مصدر سابق، ص18.

[16] المصدر نفسه: ص49.

[17] هابنسرايت: مصدر سابق، ص80.

[18] المصدر نفسه: ص88.

[19] جان أندري بايصونال: مصدر سابق، ص31.

[20] المصدر نفسه: ص22.

[21] المصدر نفسه: ص26.

[22] المصدر نفسه: ص26.

[23] المصدر نفسه: ص26.

[24] المصدر نفسه: ص23.

[25] المصدر نفسه: ص24- 25.

[26] Desfontaines René Louiche: voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, publiés par M. Dureau de la Malle, librairie de Gide, Paris, 1838, p119.

[27] هابنسترايت: مصدر سابق، ص94.

[28] ليلى الصباغ: عنابة بين اسمها، موقعها، وعلاقاتها مع العالم المتوسطي حتى الاحتلال الفرنسي، مجلّة الأصالة، الجزائر، العدد 34- 35، 1976م، ص132.

[29] جان أندري بايصونال: مصدر سابق، ص26.

[30] هابنسترايت: مصدر سابق، ص81.

[31] جان أندري بايصونال: مصدر سابق، ص22.

[32] هابنسترايت: مصدر سابق، ص82.

[33] جان أندري بايصونال: مصدر سابق، ص22.

[34] الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد لخضر، ط2، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ص62.

[35] يحي بوعزيز: عنابة عبر التاريخ، مجلّة الأصالة، الجزائر، العدد 34- 35، 1976م، ص24.

[36] ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق، ص90.

[37] ليلى الصبّاغ: مرجع سابق،ص154.

[38] المصدر نفسه: ص 23.

[39] جان أندري بايصونال: مصدر سابق، ص23.

[40] ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق، ص90.

[41] جان أندري بايصونال: مصدر سابق، ص23.

[42] جان أندري بايصونال: مصدر سابق، ص191.

[43] ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق، ص90.

[44] A. Devoulx: Tachrifat: recueil de notes historiques sur l'administration de L'ancienne régence d'Alger, imprimerie de gouvernement, Alger, 1852, p50.

[45] المصدر نفسه: ص23.

[46] جميلة معاشي: الإنكشارية والمجتمع ببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، 2007- 2008م، ص72.

[47] يحي بوعزيز: مرجع سابق، ص24.

[48] خير الدين بربروس: مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد درّاج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص177.

[49] ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق، ص93.

[50] أندريه ريمون: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، ط1، دار الفكر، القاهرة، مصر، 1991م، ص23.

[51] خليل ساحلي أوغلى: إحداث لواء جديد في الجزائر في أواخر القرن السادس عشر يتركب من بلد العناب وباستيون وتبارقة وقلعة باجة، مجلّة الأصالة، الجزائر، العدد 34- 35، 1976م، ص166.

[52] جان أندري بايصونال: مصدر سابق، ص156.

[53] المصدر نفسه: ص 56.

[54] المصدر نفسه: ص56.

[55] هابنسترايت: مصدر سابق، ص83.

[56] جان أندري بايصونال: مصدر سابق، ص63.

[57] المصدر نفسه: ص64.

[58] الصدر نفسه: ص57.

[59] ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق، ص102.

[60] محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972م، ص114.

[61] الحسن الوزان: مصدر سابق، ج2، ص62.

[62] جان أندري بايصونال: مصدر سابق، ص65..

[63] الحسن الوزان: مصدر سابق، ج2، ص62.

[64] عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987م، ص161- 166.

[65] عثمان الكعاك: عنابة قبل الإسلام، مجلّة الأصالة، الجزائر، العدد 34- 35، 1976م، ص55.

[66] ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق، ص94.

[67] ميكال دي ايبالزا: حول ثلاثة أحداث غير معروفة من العلاقات التاريخية بين عنابة واسبانيا، مجلّة الأصالة، الجزائر، العدد 34- 35، 1976م، ص 117.

[68] الحسن الوزان الفاسي: مصدر سابق، ص61.

[69] ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص97.

[70] المرجع نفسه، ص97.

[71] لوسات فلنزي: المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790- 1830م، ط1، دار الحقيقة، بيروت، لبنان، 1980م، ص62.

[72] الحسن الوزان: مصدر سابق، ج2، ص 62.

[73] جان أندري بايصونال: مصدر سابق، ص 65.

[74] ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص90.

[75] محمد العربي الزبيري: مرجع سابق، ص66.

[76] جان أندري بايصونال: مصدر سابق، ص 52.

[77] المصدر نفسه: ص52.

[78] المصدر نفسه: ص52.

[79] المصدر نفسه: ص55.

[80] الحسن الوزان: مصدر سابق، ج2، ص62.

[81] المصدر نفسه، ص62.

[82] ليلى الصبّاغ: مرجع سابق، ص155- 156.

[83] سعيدوني: مرجع سابق، ص100.

[84] جان أندري بايصونال: مصدر سابق، ص 22.

[85] هابنسرايت: مصدر سابق، ص82.

[86] المصدر نفسه: ص82.

[87] هاينريش فون مالتسان: مصدر سابق، ص242.

[88] جان أندري بايصونال: مصدر سابق، ص22.

[89] هابنسرايت: مصدر سابق، ص 94.

[90] المصدر نفسه: ص 94.

[91] سعيدوني: مرجع سابق، ص101.

[92] عثمان الكعاك: مرجع سابق، ص58.

[93] ليلى الصبّاغ: مرجع سابق، ص151.

[94] هاينريش فون مالتسان: مصدر سابق، ج2، ص244.

[95] صرهودة يوسفي: الاقتصاد والمجتمع في إيالة الجزائر 1700- 1830م، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة 2- عبد الحميد مهري، 2017- 2018م، ص106.

[96] محمد العربي الزبيري: مرجع سابق، ص148.

[97] المرجع نفسه: ص84.

[98] خليل ساحلي أوغلي: مرجع سابق، ص169.

[99] لوسات فلنزي: مرجع سابق، ص95.

[100] صرهودة يوسفي: مرجع سابق، ص106.

[101] المرجع نفسه: ص174.

[102] المرجع نفسه: ص 166.

[103] ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق، ص98.

[104] الحسن الوزان: مصدر سابق، ص61.

[105] ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق، ص99.

[106] محمد العربي الزبيري: مرجع سابق، ص147.